

تداولية مبدأ التأدّب في إنجازية الفعل الكلامي

The Pragmatic Principle of Politeness in the Illocutionary Speech Act

أ.د. بن عيسى عبد الحليم¹

جامعة وهران 1، أحمد بن بلة، الجزائر

الملخص:

يناقش هذا البحث آليات تخليق القول، يكشف عن قواعده لضمان النجاح للفعل الإنجازي من منظور قواعد التخاطب التي تقتضيها البيئة اللغوية العربية، وسنقارن ما أصّله الدارسون ضمن نظرية الأفعال الكلامية مع قدّمه علماؤنا في التراث العربي، والغرض هو التأكيد في النهاية أنّ قواعد مبدأ التأدّب تتجسّد في فعل القول ضمن مؤشّرات قولية مختلفة، وليست متنصّلة عن اللفظ، ولكنّها ليست نموذجية عامة كما يعتقد الكثير من الدارسين المعاصرين في هذه النظرية؛ بل تختلف من حيث طبيعتها وخصوصياتها بحسب البيئة اللغوية والاجتماعية والفلسفية وحتى الإنسانية والعقدية بين مختلف الأمم، وهذا ما سنظهره في هذه الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية: التأدّب في القول، الفعل الإنجازي، التخاطب، التداولية، التواجه في القول، تخليق الخطاب.

¹ - اسم ولقب الباحث: أ.د. بن عيسى عبد الحليم، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، البريد

الالكتروني: abdelhalim2001@yahoo.fr

Abstract :

Our research discusses the mechanisms of creating a speech act, and what to reveal about the rules for guaranteeing the success of illocutionary act from the perspective of conversation's rules that are required by the Arabic linguistic environment. Moreover we ought to compare between what scholars studied within the speech act theory and what was represented in the ancient Arabic studies. The purpose eventually is to ensure that the rules of politeness principle are embodied in the act of speaking in different speech measures, and are not separated from the word. Hence generally they are not typical as modern scholars may believe in this theory ; but it differs in terms of its nature and features due to its linguistic social and philosophical environment and even its humanistic and ideological milieu in various nations, this is what is going to be tackled in this paper.

Key words : politeness in speech act, illocutionaryact, communication, pragmatics, confrontation in speech act, creation of conversation.

تقديم:

شكّل "الفعل الكلامي" الموضوع الأساسي الذي انبنت عليه نظرية الأفعال الكلامية؛ فقد بيّن رواده طبيعته وشروطه وأقسامه والقواعد التي تضبطه لتحقيق إنجازيته، وقد اتّضح لـ "أوستين Austin"، ومن بعده مع تلميذه "سيرل Searle" وغيره، أنّ فعاليته مرهونة بما يقتضيه "الموقف" الذي يجري فيه التخاطب؛ بدءاً من المتكلّم، ثم الموقف الذي يجري فيه الكلام بمختلف معطياته، ووصولاً إلى المتلقّي الذي يتفاعل معه. وقد اتّضح لهم أيضاً أنّ قواعد النسق اللغوي غير كافية لتحقيق إنجازيته، لذا عدّت "مقتضيات التأدّب والتهذيب" في التخاطب من أهم المبادئ التي من شأنها أن تسهم في إنتاج الفعل القولي وتحقيق إنجازيته. وإذا كان "أوستين Austin" لم يستجمعها ضمن مبدأ عام وقواعد خاصة، فإنّه قد أشار إليها وهو يورد "شروط مطابقة مقتضى الحال في الإنشاء" في محاضراته، ولكنها نالت حظّها أكثر من الدرس والمعالجة مع غيره من الدارسين مثل "غرايس Grice"، و"روين لاكوف Robin Lakoff"، و"براون Brown" و"ليفنسون Lenvinsen"، و"ليتش Leech" و"أوريكيوني Orecchione"، وغيرهم.

وبحثنا يناقش آليات تخليق القول، ويكشف عن قواعده لضمان النجاح للفعل الإنجازي من منظور قواعد التخاطب التي تقتضيها البيئة اللغوية العربية، وسنقارن ما قدّمه الدارسون ضمن نظرية الأفعال الكلامية

مع قدّمه علماؤنا في التراث العربي، والغرض هو التأكيد في النهاية أن قواعد مبدأ التأدّب تتجسّد في فعل القول ضمن مؤشّرات قولية مضبوطة، وليست متنصّلة عن اللفظ، ولكنّها ليست نموذجية عامة كما يعتقد الكثير من الدارسين المعاصرين في هذه النظرية؛ بل تختلف من حيث طبيعتها وخصوصياتها بحسب البيئة اللغوية والاجتماعية والفلسفية وحتى الإنسانية والعقدية بين مختلف الأمم، وهذا ما سنظهره في هذه الورقة البحثية.

1-التخاطب و"مبدأ التأدّب" في القول:

يعدّ "التأدّب" من بين أهم المصطلحات التي تردّت في الدراسات التداولية، و"أدّبه في اللغة: راضه على محاسن الأخلاق، ولقّنه فنون الأدب، وتأدّب: تعلّم الأدب. ويقال تأدّب بأدب القرآن أو أدب الرسول: احتذاه". و"الأدب الذي يتأدّب به الأديب من الناس؛ سُمّي أدبا لأنّه يَأدّبُ النَّاسَ إلى الحماد وينهاهم عن المقابح... وأدّبه فتأدّب: علّمه الأدب". والتأديب: التهذيب والمجازاة"¹. وفي الحديث النبوي الشريف: ﴿أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي﴾.

فمعاني "التأدّب" مرتبطة بالتعلّم والأخذ بكلّ ما من شأنه أن يكسب ويهدي الفرد إلى كل ما هو محمود، ويبعده عن كل ما هو مذموم، وعليه إذا وُصف به الخطاب (الخطاب المؤدّب) فإنّها قد تجعله يحمل كل

¹ ينظر لسان العرب لابن منظور، مادة "أدب"، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي مادة "أدب"، والمعجم الوسيط، مادة "أدب".

هذه الدلالات. فـ"التأدّب في الخطاب" في أساسه كفاءة لغوية أخلاقية تمكّن صاحبها من القدرة على التفاعل الناجح مع المتلقي في مختلف المواقف، بإنتاج الخطاب الذي من شأنه أن يضمن هذا التفاعل، وبالتالي يحقق الغرض المنوط به.

وبهذا يشمل "التأدّب" كل المعارف العلمية والثقافية والاجتماعية والحضارية والأخلاقية، والتي تهدّب بدرجة أولى مخاطبات الأفراد لفظاً وفكرةً وصياغةً، ثم تُترجمها سلوكياتهم ومعاملاتهم. ولكن يبقى الأهم ما يتحقّق في الخطاب؛ أي ما يتم بـ"اللغة"، قال منصور الفقيه¹:

لَيْسَ الْأَدِيبُ أَخَا الرَّوَا يَةً لِلنَّوَادِرِ وَالْغَرِيبِ

وَلِشِعْرِ شَيْخِ الْمُحَدِّثِينَ أَبِي نُوَّاسٍ أَوْ حَبِيبِ

بَلْ ذُو التَّفَضُّلِ وَالْمَرْوَةِ وَالْعَفَافِ هُوَ الْأَدِيبُ

و"اللغة" بهذا المنظور؛ ليست مجرد أشكال أو رموز تقوم على وصف الوقائع، أو نقل الأخبار أو تقديم الطلبات؛ بل هي فعل اجتماعي أخلاقي يحمل من المقوّمات ما يضمن النجاح للتفاعل الكلامي، وبالتالي تحقيق مختلف أصناف القوة الإنجازية.

¹ الأمثال والحكم، الماوردي، ص 180.

ثم إنّ اللغة ضمن الأفعال الكلامية تفصح عن الذات، وتكشف عن طبيعة الشخصية المتكلّمة تواضعاً أو تعففاً أو تكبراً أو اضطراباً أو تفاهةً أو غير ذلك؛ فقد يطلب العامل الجادّ من مديره الحصول على إجازة فيقول: "لو تكرّمت ووافقت على إجازتنا"، فيُجيبه تواضعا: "أنت تأمر". وقد يسأل المعلّم التلميذ قائلاً: "هل أحببت عن التمارين المطلوبة منك في الحصة الماضية؟" فيجيب: "لم ولن أنجزها!"، فيقول المعلّم: "أنت غير مؤدّب". فالإنسان حديث؛ وقد يكون حديثاً حسناً أو سيئاً، ولذلك «قال بعض الحكماء لابنه: يا بنيّ إنّما الإنسان حديثٌ فإن استطعت أن تكون حديثاً حسناً فافعل»¹.

ومنه نلاحظ أنّ وظيفة اللغة ضمن هذه الحالات قائمة على أخلاقة الخطاب بما يحقّق الأفعال الاجتماعية المقصودة بالنجاح أو عدم النجاح. كما أنّها قد تفصح عن طبيعة وطبع المتكلم وقيّمته في هذه العلاقات. ثم إنّ اللغة بهذا الاعتبار هي التي تحقّق فعل "التأدّب" بمختلف أوجهه، أو "عدم التأدّب" بمختلف مظاهره، قال الشاعر يحيى بن زياد²:

وَقَدْ يَكْشِفُ الْقَوْلُ عَنِ الْفَتَى
فَيَبْدُو وَيَسْتُرُهُ مَا سَكَتُ

¹ مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق د. محمد طه الحاجري، بيروت دار النهضة العربية، 1983، ص 223.

² الأمثال والحكم، الماوردي، ص 88.

ولا يتحقّق التأدّب في "الخطاب" بالتمكّن من اللغة وقواعدها الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية فحسب؛ بل يرتكز بالتمكّن من أشكال تأليف الأقوال بحسب الأحوال التي يجري فيها الكلام، والمعرفة بالمقتضيات التعبيرية ذات الطابع التأدّبي، تدعّم أكثر بالمعرفة بأقوال العرب وحكمهم وأمثالهم ومأثوراتهم وأخبارهم وتجاربهم، يقول أبو هلال العسكري: «ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامة اللحن كحاجته إلى الشاهد والمثل والشدرة والكلمة السائرة»¹. وعليه لا تكفي الكفاءة اللغوية الصرفية في أحلقلة الخطاب من غير التمكن من أصناف المعارف الأخرى الثقافية والاجتماعية والموسوعية والمنطقية والتداولية التي تؤمّن أشكال التأدّب في التخاطب.

2- مبادئ التفاعل الكلامي المؤدّب:

أكّد التداوليون أنّ هناك مبادئ أخلاقية تحكم التفاعل الكلامي تتجاوز القواعد اللغوية التي تبقى في حدود بنية اللغة؛ كون الفعل الكلامي ليس مجرد نطق لألفاظٍ معيّنةٍ مرتّبةٍ وفق مدلولات محدّدة؛ وإنّما هو إرادة من لدن المتكلّم للتوجّه إلى المتلقي من أجل حمله على إنجاز معيّن انطلاقاً مما تملّيه العلاقة التخاطبية التي لا تبقى في حدود تحقيق القول وقواعد التبليغ؛ بل

¹ جهمرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق أبو الفضل عبد المجيد قطامش، بيروت دار الجيل، ط2، (د.ت)، 4/1.

ترتقن أكثر بمبادئ التهذيب، انطلاقاً مما يقتضيه الموقف الذي يجري فيه التلفظ.

يقول طه عبد الرحمن: «ولما كان التخاطب يقتضي اشتراك جانبيين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال، لزم أن تنضبط هذه الأقوال بقواعد تحدّد وجوه فائدتها الإخبارية أو قل "فائدتها التواصلية"، نسميها بـ"قواعد التبليغ"، علماً بأنّ مصطلح "التبليغ" موضوعٌ للدلالة على التواصل الخاص بالإنسان، كما لزم أن تنضبط هذه الأفعال بقواعد تحدّد وجوه استقامتها الأخلاقية، أو قل "التعاملية" نسميها بـ"قواعد التهذيب"¹.

وتتأسس الفكرة الأساسية لـ"قواعد التهذيب الأخلاقي في القول" في أنّ المتخاطبين في أي تفاعل كلامي إنّما يتقاسمان هدفاً مشتركاً؛ وهو تحقيق الفعالية المهدّبة للتواصل، والتي تستدعي عدم البقاء في حدود البناء اللغوي؛ بل تقوم أيضاً على النظر في حَدِيثِ الفعل الكلامي. ومن هنا نقول حينما ننطق بالقول فإنّه يجري أكثر من مجرد التعبير عن قصد ما؛ بل إنّ تفاعل معرفي وثقافي ونفسي وأخلاقي أيضاً، وهذا يعنى وجود قواعد لغوية ومبادئ غير لغوية في كل قول، يقتضيها التفاعل الكلامي.

¹ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 237.

وقد بحث التداوليون في هذه القواعد منهم؛ "غرايس Grice" الذي صاغها ضمن مبدأ عام سمّاه "مبدأ التعاون"¹، وصيغته "ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه"². وهو مبدأ يستوجب من المشاركين في النشاط الكلامي أن يأخذوا بأخلاقيات التخاطب؛ إذ يُتوقع أن يُسهم كلّ واحد منهم في المخاطبة بكيفية عقلانية ومتعاونة في إنتاج الكلام وتأويله، انطلاقاً من أربع قواعد:

أولاً-قاعدة الكم: تقتضي أن: تكون إفادة المخاطب على قدر حاجته، وأن لا تتعدّى الإفادة القدر المطلوب.

ثانياً-قاعدة النوع: وتستلزم من المتكلّم: أن يكون صادقاً فيما يقوله، وأن لا يقول ما ليس عليه دليل.

ثالثاً-قاعدة العلاقة (المناسبة): وتستدعي من المتكلّم أن يجعل كلامه مناسباً وذا علاقة بالموضوع والمقام الذي يجري فيه.

¹ ذكره لأول مرة في دروسه "محاضرات في التخاطب"، وشرحه أكثر في مقالته الشهيرة "المنطق والتخاطب".

² اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، ص 238.

رابعاً-قاعدة الكيف (الطريقة): وتدعو المتكلم إلى الإيجاز والإفصاح، والاحتراز من الغموض والالتباس، وترتيب الكلام وتنسيقه¹.

وهي قواعد مركّبة ومتنوّعة المعطيات؛ تنطلق من الفعل القولي، ثم تربطه بمكوّنات السياق التي تسهم ككل في بناء مقصده وتحقيق غرضه، وهي تمثّل ضوابط تضمن لأي تفاعل كلامي نموذجي تحقيق الفعل الإنجازي.

ولكن رغم دقّة هذه القواعد وقيمتها إلا أنّها قواعد نموذجية عامة قد لا تكفي في كل أصناف التخاطب؛ يقول "ليفنسون Levinson": «هذه المعايير تُخصّص ما يجب أن يفعله المشاركون في المحادثة حتى يديروا المحادثة بشكل فعّال وعقلاني وتعاوني إلى أقصى حدّ... ويثار في الحال اعتراض ضدّ هذا الفهم للاتصال، فهو ربما يصف جنّة للفلاسفة؛ بل لا يتحدّث أحد حقيقة الوقت كله على هذا النحو!»².

فقواعد "غرايس Grice" تصف كيفيات التخاطب من غير أن توضّح وتأخذ في الحسبان جميع مقتضيات التفاعل الكلامي وتداعيات

¹ ينظر اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، 238، واستراتيجيات الخطاب، د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص 96. والتداولية اليوم، آن روبرول وجاك موشلار، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ص 57، ونظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، د. صلاح إسماعيل، ص 87.

² البراهماتية اللغوية، ستيفن ليفنسون، ترجمة د. سعيد حسن بحيري، القاهرة مكتبة زهراء الشرق، ط 1/2015، ص 149.

الموقف الذي يجري فيه الكلام؛ فالمتلقّي مثلا أصناف، مما قد يدعونا في حالات ما إلى اختراق قاعدة الكم التي قد تجعلنا نتصرّف في مقتضياتها بحسب هذه الأصناف، وبالخصوص - كما تقول "أوركيوني Orecchione" - ذوي سوء النية، فقد يلجؤون إلى مناورات هدفها العرقة والإلهاء. ثم إنّ هناك تبادلات تَقُلُّ فيها درجة التعاون على غرار التفاعل في "المناظرة" و"الجدل" ومختلف أشكال الاتصال المبني على الاختلاف، والذي يُتجاوز فيه التبادلات الهادئة، وحتى الاندماجية¹.

ولا بد أنّ نشير ههنا إلى "التخاطب" لا يجري على نمط نموذجي واحد، فقد لا يتحقق بشكل تعاوني بسيط وواضح القصد والغرض؛ بل يتنوّع بتنوّع منتج القول ومتلقيه أيضا وظروف الكلام كذلك، على أساس أنّ جوهر الخطاب ليس مبنيا دائما على البيان والتبيين، فقد يقوم على التعقيم والاحتيال والتشويش بحسب أغراض التواصل.

3- "مبدأ التأدّب" في الدرس التداولي:

انتبه التداوليون إلى مفهوم "مبدأ التأدّب والتهذيب" كمكون من مكونات إنتاج الفعل الكلامي، فبينوا أهميته في تحقيق إنجازيته المنوطة به، وبلوروا الفكرة الأساسية التي يقوم عليها ضمن قواعد خاصة، قد نبدا في هذه المناسبة بـ "سيرل Searle" الذي بيّن كيف أنّ "التأدّب La

¹ ينظر، المضمّر، أوركيوني، ترجمة ريتا خاطر، ص 350.

"politesse" يعدّ الأساس الأولي -إن لم يكن الوحيد- في استعمال القول غير المباشر¹، وقد انطلق في ذلك من أمثلة متنوعة منها:

- "هل يمكن أن تُقدّم لي الملح؟"

- "هل يمكن أن تعبرني القلم؟"

وهي استعمالات تشيع في مخاطباتنا بقوة حيث نوظف الأفعال الكلامية غير المباشرة حتى نضمن تحقيق القوة الإنجازية المرادة، ثم إنّ المتلقّي قد يكون له المجال للرفض في الفعل الكلامي المباشر، ولكن انطلاقاً من هذه الاستراتيجية قد يستجيب للفعل التأثيري المراد، وبالتالي يتحقّق الإنجاز المنوط به. وهنا يؤكّد "سيرل Searle" مرّة أخرى أنّ "التأدّب La politesse" هو الدافع الأكثر قوة لاستعمال الطلبات غير المباشرة²؛ والسبب في ذلك أنّ إنجازية الأفعال الكلامية في جوهرها تتأسس على الموقف الذي يجري فيه بين المتكلّم والمتلقّي، وبالتالي فنجاح أو عدم نجاح كلّ قوة إنجازية يبقى مرتبطاً بنوعية الفعل القولي، ومدى توافره على السمات الأخلاقية التي من شأنها أن تحقّق الفعل التأثيري، وبالتالي الفعل الإنجازي المقصود.

¹ Voir John Searle, Sens et expression, P:92.

² Voir Ibid, P:92.

وقد ذكر "سيرل Searle" أنّ هناك صيغاً معينة تكاد تكون بطبيعتها طُرُقاً عُرفيّة للتأدّب في إنجاز الطلب غير المباشر، تختلف انطلاقاً من البيئة اللغوية التي ينتمي إليها أطراف التخاطب، ففي الفرنسية يشيع استعمال صيغ " Pouvez-vous, pourriez-vous, je voudrais que..." وغيرها¹. أما في لغتنا العربية فقد نستعمل عبارات "لو سمحت، من فضلك، إن كان بإمكانك، إن استطعت، بصدق"، وغيرها من المؤشّرات اللغوية² التي تفصح عن مدى التأدّب الذي قد يتمتع به المتكلم. وهذا ما يشيع في طلباتنا اليومية؛ إذ كثيراً ما نقول:

- "لو سمحت دعني أكمل حديثي"؛ حينما يقاطعنا المخاطب.

- "من فضلك احترم الموعد" حينما نتودّد أكثر من أجل جعل المخاطب يأتي في الموعد المحدّد.

- "إن استطعت اجلب لي عند عودتك هدية"؛ حينما نريد الحصول على هدية ما.

فالمؤشّرات القولية ذات الطابع الأخلاقي: "لو سمحت، من فضلك، إن استطعت"، والتي قد تُصحب في سياقات ما بنعمة هادئة ودية، تجسّد

¹ Voir Ibid, P:92.

² يسميها د. أحمد المتوكل "ظروف القوى الإنجازية" وقد ناقشها بحسب أصناف الأفعال الكلامية التي اقترحها "سيرل". ينظر آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، ص 74-75.

مدى التأدّب الذي يريده المتكلّم مع مخاطبه، فهي ضمان لتحقيق قصد قوله وإنجازيته، فهو لا يريد إحراج، بل يحافظ على ماء وجهه، كما أنّها تزيد في درجة إذعان المتلقّي للقوة الإنجازية المرادة.

وقد ناقشت "روبين لايفوف Robin Lakoff" قواعد "مبدأ التأدّب" كذلك في مقالها "منطق التأدّب"، دعت فيه إلى الأخذ بعين الاعتبار قواعد التهذيب أثناء التخاطب. ويقتضي هذا المبدأ أن يلتزم كل من المتكلّم والمخاطب بتحقيق الغاية التي من أجلها دخلاً في الكلام من ضوابط التهذيب ما لا يقل عما يلتزمان به من ضوابط التبليغ¹. ولنكتشف قيمة ذلك قد نثّل بقولنا: "أغلق الباب"، و"أغلق الباب من فضلك" و"لو سمحت أغلق الباب".

وقد فرعت "لايفوف Lakoff" عن هذا المبدأ ثلاث قواعد

وهي:

*قاعدة التعفّف: ومقتضاها "لا تفرض نفسك على المخاطب".

*قاعدة التشكّك: ومقتضاها "لتجعل مخاطبك يختار بنفسه".

*قاعدة التودّد: ومقتضاها "لتُظهر الودّ للمخاطب"².

¹ ينظر اللسان والميزان، د. طه عبد الرحمن، ص 240.

² ينظر المرجع نفسه، ص 240-241.

فأدنى تأمل لهذه القواعد يجعلنا نلاحظ أنّ جوهرها قائم على ضرورة مراعاة العلاقة التخاطبية ذات البعد الأخلاقي بين المتكلّم والمخاطب وفق ما تقتضيه العلاقات الاجتماعية والمعطيات النفسية، فهي تدعو إلى التعفّف والتهذيب والتودّد في تشكيل الفعل الكلامي، كما تستدعي -أثناء الطلب مثلاً- استعمال الأفعال الكلامية غير المباشرة؛ وكلّ ذلك بحسب الموقف الذي يجري فيه الكلام. قد نستأنس في توضيح ذلك بما أورده ابن قتيبة حيث قال: «قال المنصور لرجلٍ أحمدَ منه أمراً: سَلْ حاجتك فقال: يُيقيك الله يا أمير المؤمنين؛ قال: سَلْ، فليس يمكنك ذلك في كلّ وقتٍ، ولم يا أمير المؤمنين؟! فوالله لا أَسْتَقْصِرُ عُمْرَكَ، وَلَا أَرْهَبُ بُخْلَكَ، وَلَا أَغْنِيَنَّ مَالَكَ، وَإِنَّ سُؤَالَكَ لَزِينٌ، وَإِنَّ عَطَاءَكَ لَشَرَفٌ، وَمَا عَلَى أَحَدٍ بَذْلَ وَجْهِهِ إِلَيْكَ نَقْصٌ وَلَا شَيْنٌ، فَأَمَرَ حَتَّى مُلِيَ فُوهُ دُرّاً»¹. حيث تتحقّق الفعل الكلامي بطريقة غير مباشرة، برع من خلالها المتكلّم في احترام مقتضيات قواعد مبدأ التأدّب؛ فهو في حضرة المنصور حيث لا بد من تجسيد التعفّف والتهذيب والتودّد بالعبارات التي تفصح عن ذلك، فتحقّق الفعل الإنجازي المقصود.

كما أورد "ليتش Leech" "مبدأ اللطف (التأدّب الأقصى) في الفعل الكلامي" انطلق فيه من "مبدأ التعاون" لـ "غرايس Grice"، واعتبره غير كافٍ لتفسير العلاقة الموجودة بين القول والقوة الإنجازية، كما أنّ قواعده ليست كُليةً ولا شاملةً للغة، فأقرّ بأهميتها في التخاطب اللغوي

¹ عيون الأخبار، 128/3.

من جهة، ثم أضاف إليها بعض المعطيات الاجتماعية والنفسية الضرورية من جهة أخرى. وقد صاغ مبدأه انطلاقاً من صورتين متضادتين؛ الأولى: "فَلْتُخَفِّضْ" (والحال هو على ما هو عليه) إلى الحد الأدنى عن الأحكام غير المؤدّبة" (التأدّب النسبي). والثانية: "فلترفع" (والحال هو على ما به) إلى الحدّ الأعلى التعبير عن الأحكام المؤدّبة" (التأدّب الأقصى)¹.

وقد بيّن "ليتش Leech" أنّ هذا المبدأ يقوم على ستّ قواعد ذات صبغة ثنائية تقابلية وهي:

1- قاعدة فن التأدّب؛ وصورتهما:

← *تقليل الخسارة للآخر تكثير الربح للآخر.

2- قاعدة الجود والكرم: وصورتهما:

← *تقليل الربح للذات تكثير الخسارة للذات.

3- قاعدة الاستحسان: وصورتهما:

← *تقليل التنقيص من الآخر تكثير إطراء الآخر.

4- قاعدة التواضع: وصورتهما:

¹ مبادئ التداولية، جيوفري ليتش، ترجمة د. عبد القادر قيني، الدار البيضاء أفريقيا الشرق، 2013، ص 110.

←*تقليل الإطراء عن الذات التنقيص من الذات.

5- قاعدة الموافقة (التأكيد): وصورهما:

←*تقليل الاتفاق بين الذات والآخر تكثير الموافقة بين
الذات والآخر

6- قاعدة التعاطف (التصديق): وصورهما:

←*تقليل التنافر والعداوة بين الذات والآخر تكثير التواد
والتعاطف بين وأنا والآخر¹.

وهي كلّها قواعد تكرّس حسن التأدب الذي من الضروري أن يتحلّى به المتكلم في خطاباته، كما تعني أكثر بالملتقي؛ لأنّها الضمان الأكثر فعالية في نجاح الفعل الكلامي، وكل ذلك بحسب ما يملّيه الموقف الذي يجري فيه التخاطب، وقد تمثّل لدور هذه القواعد في "الأمريات"؛ فقد نحققها وفق الأوجه التالية:

أ- "أعربي القلم".

¹ ينظر مبادئ التداولية، ليتش، ص174، واللسان والميزان، طه عبد الرحمن، ص246-247، و استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية- د.عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص111-112.

ب- "أريد أن تعيرني القلم".

ج- "هل بإمكانك أن تعيرني القلم".

د- "لو سمحت أعرني القلم".

فالقول الأول لا يأخذ بالتأدّب الأقصى حيث تم الطلب بطريقة مباشرة، مما قد يولّد إحجام المخاطب على تحقيق الفعل المطلوب، في حين نجد في القول الثاني شيئاً من اللباقة والأخلاق؛ إذ تحقّق طلب القلم بالعبارة الخبرية التي تترك للمخاطب الاختيار في إنجاز ما طُلب منه. أما الثالثة فهي أكثر لباقةً من السابقتين؛ لأنّها جاءت في شكل استفهام يترك للمحيب حرية الاختيار بين القبول أو الرفض. في حين كانت الجملة الرابعة أكثر لباقةً وتأدّباً من الجمل السابقة؛ لأنّها تُظهر عدم طمع المتكلّم في وقوع المطلوب، مما لا يؤدّي إلى التنازع في تحقيق إنجاز الفعل (فعل العطاء)، ولكن هذا ما يدفع أكثر المتلقي إلى تحقيق القوة الإنجازية المطلوبة.

ورغم دقّة هذه القواعد إلا أنّها لا تأخذ بعين الاعتبار أشكال التخاطب التي قد تختلف باختلاف طبيعة منتج القول ومتلقيه، والموقف الذي يجري فيه الكلام، وتأثيراته في فعل القول الذي يمكن أن يحقق في القوة الإنجازية المنوطة به؛ على أساس أن لكل موقف مقتضيات تبليغية وغير تبليغية قد تتنوّع بحسب طبيعة المتلقي (المتلقي ليساً نمطاً واحداً بل هو متنوع)، والحال الذي يجري فيه إنتاج الكلام ومعطياته وغير ذلك.

4-قواعد "التأدّب والأخلاق" في الدراسات العربية:

أدرك دارسونا أهمية التأدّب في التخاطب، فقدّموا أفكارا دقيقة حول طبيعته ومقتضياته. بما قد يحتوي أصناف التخاطب المختلفة، وأشكال الموقف الذي يجري فيه الكلام، وما تقتضيه أخلاق الإنسان قبل أخلاق اللسان، يقول ابن قتيبة (ت276هـ): «ونحن نستحبّ لمن قبلَ عَنَّا وائتمّ بكتبنا أن يؤدّب لسانه، ويهدّب أخلاقه قبل أن يهدّب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ويجانب قبل مجانبته اللحن وخطل القول - شنيع الكلام ورفث المزح»¹. فأخلاق الإنسان من أخلاق اللسان، ومروءته من أدب الكلام.

وقد ناقش دارسونا في التراث العربي مقتضيات "مبدأ الأخلاق" في التخاطب، وبيّنوا دوره في إنتاج الكلام وتحقيق غرضه المنوط به، ولكن وردت أفكارهم في إطار دراسة قضايا لغوية ونقدية وبلاغية وأدبية مختلفة. وقد ظلّت هذه الدراسات تدعو في جوهرها إلى الدقّة في تأليف الكلام والوضوح والابتعاد عن أشكال اللبس والتعقيد والغموض والغرابة من جهة، وتركز أيضا على ما تقتضيه القواعد الأخلاقية التهذيبية من جهة أخرى. وسنحاول ههنا استجماع القواعد التي أشاروا إليها وفق ما يقتضيه هذا المبدأ، وهي تقوم في أساسها على ما يلي:

¹ أدب الكاتب، ابن قتيبة، تحقيق محمد الدالي، بيروت مؤسسة الرسالة (د.ت)، ص14.

أ- قاعدة التواضع في القول:

تقوم قاعدة "التواضع" على احترام وضعية التخاطب بين المتكلم والمتلقي؛ فمن أخلاقيات التكلم في البيئة العربية أن نتواضع مباشرة مع من نتحدث إليه، فننظر إليه بما يُلفت انتباهه ويؤنسّه. وقد حدّد الجاحظ ما يجب أن يتحلّى به المتكلم ضمن هذه القاعدة حتى يحفظ وجهه، إذ يقول: «حدّثنا غيلان بن جرير قال: "لَا تُطْعِمَ طَعَامَكَ مَنْ لَا يَشْتَهِيهِ"، يقول: لَا تُقْبَلْ بِحَدِيثِكَ عَلَى مَنْ لَا يُقْبَلُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ. وقال عبد الله بن مسعود "حَدَّثَ النَّاسَ مَا حَدَّجُواكَ بِأَبْصَارِهِمْ، وَأَذْنُوا لَكَ بِأَسْمَاعِهِمْ، وَلَحَظُواكَ بِأَبْصَارِهِمْ، وَإِذَا رَأَيْتَ مِنْهُمْ فِتْرَةً فَأَمْسِكْ"»¹. وهي دعوة صريحة إلى التواضع في التخاطب بين المتكلم والمتلقي بما يضمن الاستماع والإنصات؛ أي النظر المتبادل بين المتكلم والمتلقي، وبالتالي خلق الفعالية والاستمرارية في التخاطب.

قد نمثّل لذلك بمحاورة "الوليد بن عبد الملك ورجلٍ مُعْتَرِضٍ عَلَيْهِ فِي خُطْبَتِهِ حَيْثُ لَمْ يَرَاغَ "مبدأ التواضع"، فاستعمل الأفعال الكلامية التي تهدّد الوجه الدافع (وجه المتلقي)؛ إذ يذكر ابن عبد ربّه أنّه «جلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرّت الشمس، فقام إليه رجل فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ الْوَقْتَ لَا يَنْتَظِرُكَ، وَإِنَّ الرَّبَّ لَا يَعْذِرُكَ، قال: صدقت،

¹ البيان والتبيين، الجاحظ، 103/1-104.

ومن قال مثل مقالتك فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك من ها هنا، مَنْ
أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه؟¹.

بتوظيف استراتيجية التأدب السليبي؛ يدلّ على ذلك استعمال الفعل
الكلامي غير المباشر "إنّ الوقت لا ينتظرك، وإنّ الربّ لا يعذرُك"؛ والفعل
الإنجازي ههنا هو إنهاء الخطبة؛ فقد تأخّر الوقت، ولكنّ في ذلك تهديدا
وانتقاصا من وجه الوليد بن عبد الملك؛ فهو الحاكم، ولا يجوز احتمال
الإهانة في هذا الموقف؛ لأنّه لا مبرّر له، فعلاقة الحاكم بالمحكوم الاحترام
والطاعة، وهذا ما جعل أمير المؤمنين يطلب قطع عنقه.

تقتضي هذه القاعدة أن يُحسن المتكلم في إنتاج القول بما يلفت
انتباه المخاطب، كما تستدعي من المتلقي التفاعل الإيجابي بالاستماع الجيد،
وقد قال بعض الحكماء: «من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤونة
الاستماع»².

¹ العقد الفريد، ابن عبد ربه، 51/1. والأمر نفسه نلاحظه في قصة الرشيد ومعتز عليه في
خطبته؛ إذ «قام رجل إلى هارون الرشيد وهو يخطب بمكة، فقال: "كَبِيرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ" الصف (3)، فأمر به فضرب مائة سوط، فكان يئنّ الليل كله ويقول:
الموت! الموت. فأخبر هارون أنه رجل صالح، فأرسل إليه فاستحلّه فأحلّه». المصدر نفسه،
51/1.

² البيان والتبيين، الجاحظ، 105/1.

ب-الصدق في القول وتحري الحق: قد نصوغها في عبارة "كن صادقا فيما تزعم وتقول"، وصدق أحد الحكماء إذ قال: "لا تقول ما لا تعلم، ولا تتعاطى ما لا تنال، ولا يخالف لسألك ما في قلبك، ولا قولك فعلك"¹. ويقول العسكري: «وأما الضرورة إلى سوقِ خبرٍ واقتصاصِ كلامٍ، فحتاج إلى أن تتوخى فيه الصدق، وتتحري الحق؛ فإنَّ الكلامَ حينئذٍ يُملِكُك ويُحوِّجُك إلى اتِّباعه والانقياد له»². ومن هنا تبرز أهمية قاعدة "الصدق" في التفاعل الكلامي، والتي تؤمّن في بيئتنا العربية التفاهم والتوادد أيضا، باعتبارها تستميل المتلقي وتدعوه أكثر للفهم والاقتناع. وهنا نشير إلى أن من هِمة العربي اتّصافه بهذا الخلق، وصدق الشاعر إذ قال³:

لَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ إِلَّا مِنْ مَهَائِتِهِ أَوْ عَادَةِ السُّوءِ أَوْ مِنْ قِلَّةِ الْأَدَبِ

لَجِيفَةُ الْكَلْبِ عِنْدِي خَيْرُ رَائِحَةٍ مِنْ كِذْبَةِ الْمَرْءِ فِي جِدِّ وَفِي لَعِبِ

ومنه تظهر أهمية قاعدة "الصدق" التي تسم الاستعمال الكلامي، وبالتالي خلق الفعالية المقصودة التي يتغيها المتكلم.

¹ لباب الآداب، الأمير أسامة بن منقذ (ت584هـ)، ص228.

² الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2، ص153.

³ ينظر الظرف والظرفاء، أبو الطيب بن يحيى الوشاء، تحقيق د.فهمي سعد، بيروت عالم الكتب، ط1/1986، ص99.

ويذكر طه عبد الرحمن أنّه «متى تحقّق المتكلّم بالصدق في الخبر والصدق في العمل، والصدق في مطابقة قوله لفعله، انفتح باب التواصل الصادق بينه وبين المخاطب، وتزايدت أسباب التقارب بينهما، واندفع كل منهما في طلب التقرب من الآخر»¹. لتبقى الأهمية ههنا ليست مرتبطة بفعل القول وسلامته وبلاغته؛ بل تتعلّق في أساسها بالإخلاص الذي يقوم عليه القول وقصده.

و"الصدق" في معناه الأخلاقي الاجتماعي من منظور ابن سينا «هو أن يواطئ باللسان الذي هو الآلة المعبرة عما في الضمير مما يخبر به وعنه حتى لا يصير أمر ما في ضميره مسلوبا بلسانه ولا مسلوبا في ضميره واجبا بلسانه فيزيل بذلك الأمور عن حقائقها، ويبطل أحكاما يكون تعلقها به واجبا»².

وقد نتساءل أكثر عن طبيعة "الصدق" في الفعل الكلامي؛ فهو نوعان "صدق كلامي"؛ وهو منوط بما تملّيه قواعد السلامة اللغوية وضوابط البلاغة³، وتستدعي في أساسها الابتعاد عن أشكال اللبس والتعقيد اللغوي،

¹ اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، ص 252.

² كتاب تسع رسائل في الحكمة والطبيعات، ابن سينا، الرسالة الثامنة في "العهد"، القاهرة دار العرب للبستاني، ط 2، ص 143-144

³ وقد ناقش البلاغيون ما له علاقة بأشكال "الصدق الكلامي" أثناء حديثهم عن "بلاغة الكلام" حيث اشترطوا الابتعاد عن التعقيد اللفظي والمعنوي والتركيب، ودعوا إلى انتقاء

من حيث طبيعة المفردات التي قد تستعمل في الإنتاج الكلامي، أو في التركيب أو غير ذلك. و"صدق تداولي" مرتبط بمعطيات الموقف الذي يجري فيه التخاطب حيث يملّي على المتكلم الابتعاد عن أشكال التضليل والمراوغة والكذب.

وهنا نشير إلى أنّ من شيمّ العربي الاتصاف بالصدق في القول، والبعد عن أشكال الخيل والشطط والمراوغة. وهي سمة تقتضيها الفطرة العربية السليمة، وتفرضها العقيدة الإسلامية، وتقوم عليها الأعراف الاجتماعية العربية الأصيلة. وترتقن مقتضيات "الصدق التداولي" بأركان التخاطب ككل، وبالموقف الذي يجري فيه الكلام؛ قد نستأنس في ذلك مع الحجاج؛ إذ يروى أنّه «جلس يوماً لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقام رجل منهم فقال: أصلح الله الأمير! إنّ لي عليك حقاً، قال: وما حقّك؟ قال: سبّك عبد الرحمن يوماً، فرددت عنك؛ فقال: من يعلم بذلك؟ فقال: أنشد الله رجلاً سمع ذلك إلاّ شهد، فقام رجل من الأسرى فقال: قد كان ذلك أيّها الأمير، فقال: خلّوا عنه. ثم قال للشاهد ما منعك أن تنكر كما أنكروا؟ فقال: لقدّم بُغضي فيك! فقال الحجاج: وليُخلّ عنه لصِدْقِهِ»¹.

الألفاظ الواضحة والصريحة، وتأليفها في تراكيب سهلة، معبّرة بجلاء عن القصد، ومبتعدة عن أوجه التأويل.

¹تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، لخليل بن أيبك الصفدي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية بيروت (د.ت)، ص264-265.

باحترام قاعدة الصدق التداولي في هذا التخاطب، مما مكن الشاهد من النجاة برقبته من سيف الحجاج. وهو صدق واقعي مؤصّل في البيئة العربية، تُملّيه فطرة العرب الصافية التي تستدعي نقل الحقائق والتعامل معها دون تزيف أو انحراف أو مغالاة.

ولكن قد تُخترق قواعد الصدق التداولي لغرض إنجازي معيّن، قد نوضّح ذلك مع المدائني الذي قال: «دخل رجل على عيسى بن موسى وعنده ابن شُرْمة فقال له: أتعرفه؟ وكان رُمي عنده بريّة قال: نعم، إنّ له بيتا وشرفا وقدماء، فخلّى سبيله، فلما خرج قال له أصحابه: أعرَفْتَه؟ قال: لا، ولكنّي أعلم أنّ له بيتا يأوي إليه، وشرفُهُ أَذْناه وَمَنْكَباه، وَقَدَمُهُ هي قَدَمُهُ التي يمشي عليها»¹. باحترام قاعدة الصدق الكلامي، واختراق قاعدة الصدق العُرفي التداولي لغرض إنجازي خاص؛ وهو التضييل مع المتلقّي، ودفع الريبة عن المسؤول عنه، وبقصدتين مختلفتين بين المتلقّي الأول، والمتلقّي الثاني، وههنا يتبيّن أنّ قواعد "مبدأ التأدّب" قد تُخترق بحسب معطيات سياق الموقف الذي يُنتج فيه الخطاب، وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن القاعدة الموالية.

¹ عيون الأخبار، لابن قتيبة، 201/2، والعقد الفريد، ابن عبد ربّه، 298/2.

جـ-القصدية الأقصى في التأدّب:

تستدعي هذه القاعدة التعبير بما يقتضيه القصد الذي يحقّق الأثر
المبتغى بين المتكلم والمتلقي معا من دون مراوغة أو لبس، وتقوم على تكييف
الفعل الكلامي بما يوافق القوة الإنجازية من جهة أولى، وبما يتوافق مع
الموقف الذي يجري فيه الكلام من جهة ثانية، والغرض الإنجازي من جهة
ثالثة.

قد نستأنس أكثر في توضيح ذلك مع قصة المغيرة بن شعبة¹ الذي
قال: «لم يَخْدَعْنِي غَيْرَ غلامٍ من بني الحرث بن كعب، فَإِنِّي ذَكَرْتُ امْرَأَةً
منهم لَأَتَزَوَّجَهَا فَقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ لَا خَيْرَ لَكَ فِيهَا، فَقُلْتُ وَلِمَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ
رَجُلًا يَقْبَلُهَا، فَأَعْرَضَ عَنْهَا فَتَزَوَّجَهَا الْفَتَى، فَلَمْتُه، وَقُلْتُ: "أَلَمْ تُخْبِرْنِي
أَنَّكَ رَأَيْتَ رَجُلًا يَقْبَلُهَا؟! قَالَ: نَعَمْ رَأَيْتُ أَبَاهَا يَقْبَلُهَا»²، فطبيعة المقصد
الذي ابتغاه الفتى جعلته يحترم قانون الصدق الكلامي، ويخترق الصدق
التداولي (المغالطة اللغوية)، لذلك كَيْفَ معه من التلفّظات ما يعدّد في
المقاصد بينه وبين المغيرة الذي فاته القصد المراد.

¹ وهو كما يقال داهية من دهاة العرب الأربعة وهم: المغيرة بن شعبة، ومعاوية، وعمر بن
العاص، والسائب بن الأقرع، وكلهم ولدوا بالطائف. ينظر قصص العرب، إبراهيم شمس
الدين، 463/2.

² عيون الأخبار، ابن قتيبة الدنوري، القاهرة دار الكتب المصرية، ط2/ 1996، 200/2،
وقصص العرب، إبراهيم شمس الدين، ج2/ص267 وص272.

د- قاعدة التلطف والإخلاص والتعفف في القول:

تقوم على استعمال الفعل القولي الذي من شأنه أن يُظهر الوُدَّ والتَّعَفُّفَ والإخلاص للمتلقّي، وبالخصوص مع "التوجيهيات Directifs"؛ وهي تقوم على محاولة المتكلّم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما¹. و"التلطف" في الكلام هو تأليفه بما يستعطف به المتكلّم القلوب، ويستميل به النفوس، ويؤنس له العقول، فقد «قال محمد بن علي "رضي الله عنهما": البلاغة قول مفقّة في لُطفٍ؛ فالمفقه: المفهم، واللطيف من الكلام: ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنسُ القلوب المستوحشة، وتلينُ به العريكة الأبيّة المستصعبة، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجّة؛ فتخلص في نفسك من العيب، ويلزمُ صاحبك الذنب من غير أن تهيجه وتُقلقه، وتستدعي غضبه وتستشير حفيظته»². وتقوم هذه القاعدة على التكلّم في ألطف وجه، وأعذب عبارات، وأسلس أسلوب. قد يتحقق بتوظيف الأقوال غير المباشرة التي تومئ إلى القصد المطلوب، فيكون المعنى مفهوماً، واللفظ مقبولا، والغرض مضمونا.

أما "الإخلاص" فهو الإتيان بالكلام على أتم وجه دون مكابرة، أو طلب سمعة، أو مجاهرة برياء. في حين يقوم "التعفف" على استخدام العبارات التي تصون النفس، وتحافظ على ماء الوجه سواء للمتكلّم أو

¹ Voir Searle, sens et expression, P:53.

² الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ص 57.

للمتلقي. قد نمثّل لكل ذلك بما أورده صاحب عيون الأخبار حيث يذكر أنّه
«لزم بعض الحكماء بابَ بعض ملوك العجم دهرًا، فلم يصل إليه، فتلطّف
للهاجب في إيصال رقعةٍ ففعل، وكان فيها أربعةُ أسطرٍ:

السطر الأول "الأملُ والضرورةُ أقدماني عليك".

السطر الثاني "والعُدْمُ لا يكون معه صبرٌ على المطالبة".

السطر الثالث "الانصرافُ بلا فائدةٍ شماتةٌ للأعداء".

السطر الرابع "فإمّا نَعَمْ مثمرةٌ، وإمّا لا مريحةٌ". فلما قرأها وقع في
كلّ سطرٍ زه؛ فأعطى ستةَ عشرَ ألفَ مثقالٍ فضّةٍ¹، باستعمال العبارات
التي تُعزّز النفس، وتلدّ لها الآذان، وهي كلها أخلاقيات لفظية أسهمت
بفعالية تحقيق الغرض الإنجازي الذي ابتغاه المتكلم من المتلقي.

هـ- الجدبة والابتعاد عن أشكال التكلّف والهزل في القول:

تقتضي أخلاقية التخاطب الجدّ والابتعاد عن أشكال التكلّف والهزل
في التخاطب. بما قد ينتج عنه سوء الأخلاق، قال الشاعر²:

¹ عيون الأخبار، ابن قتيبة، 126/3-127، "زه". بمعنى أحسنت.

² بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذهن والهاجس، ابن عبد البر النمري القرطبي
(ت463)، تحقيق محمد مرسى الخولي، 572/2.

لِلْجِدِّ مَا خُلِقَ الْإِنْسَانُ فَالْتَمَسَنُ بِالْجِدِّ حَظَّكَ لَا بِالْهَزْلِ وَاللَّعِبِ
لَا يَلْبَثُ الْهَزْلُ أَنْ يُجْنِيَ لِصَاحِبِهِ ذِمًّا وَيُذْهِبَ عَنْهُ بِهِجَةَ الْأَدَبِ

فالجِدُّ في القول، والدَقَّة في إصابة قصده، يضيفان تقرباً صادقاً
وخالصاً بين طرفي التخاطب، وبالتالي تحقيق الفعالية في ذلك، كما يورثان
المتكلم الهيبة والصرامة في إنتاج الفعل الكلامي ونجاحه.

فالجِدُّ في القول هو التعبير عن الموضوع بكل إخلاص من غير مراوغة
أو تضليل أو سلاطة أو هذر أو مباهاة أو مراء أو تمكّم أو تجاوز للمقدار.
والجِدُّ يورث الوقار والجمال للسان، قال «العباس بن عبد المطلب للنبي
"صلى الله عليه وسلّم" فيمّ الجمال؟ قال في اللسان... وقال خالد بن
صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مهملّة»¹.

أما التكلّف في الكلام فهو الاضطراب في التعبير عن القصد، يقول
أبو هلال العسكري: «فالتكلّف طلب الشيء بصعوبة للجهل بطرائق طلبه
بالسهولة. فالكلام إذا جُمع وطلبَ بتعب وجهد، وتُنوّلت ألفاظه من بُعدٍ
فهو متكلّف؛ مثاله يقول بعضهم في دعائه: اللهم ربّنا وإلهنا، صلّ على محمد
نبيّنا، ومن أراد بنا سوءاً فأحطْ ذلك السوء به، وأرسخه فيه كرسوخ
السّجّيل على أصحاب الفيل، وانصُرنا على كلِّ باغٍ وحسود، كما

¹ البيان والتبيين، 1/170.

انتصرت لنافقة ثمود¹. فمن البلاغة أن يعطى كل الموضوع حقّه من الكلام من غير تنقّص أو إزراء أو مبالغة، وبالتالي تحقيق المقصود.

خاتمة:

يقوم مبدأ الأخلاق التخاطبي على الضوابط اللغوية التداولية التي تحفظ نظام القيم اللغوية الأخلاقية، أساسه قائم على التمكن من قواعد التخاطب التي تحكم تناسق القول بالأخلاق، ضمن تفاعل تخاطبي مضبوط، يحمل من المؤشرات القولية التي تفصح عن ذلك. وجوهر أخلاقية الخطاب قائم على الانسجام بين أنساق القول وأدبيات البيئة الاجتماعية؛ فقوام الخطاب هو مبدأ الأخلاق نفسه الذي يستدعي من المخاطب أن يكون أخلاقياً، بأن يكون واعياً بخطابه، وما ينطوي عليه من قوة نفّاذة لتذوق أنساق اللغة وأنساق القيم التي تملئها العلاقات الاجتماعية بكل ما فيها من ضوابط، وبالتالي بسطها في الخطاب الذي يحقق ذلك.

ولعلنا نكون قد لاحظنا من خلال هذه المطارحة المقارنة بين قواعد مبدأ التأدّب كما اقترحها التداوليون الغربيون، وما بسطه علماؤنا العرب في التراث العربي، أنّ البيئة اللغوية العربية قد جعلت "قواعد الأخلاق" تكتسي سمات خاصة، مؤسسة على ما يفصح عليه اللسان، تُغذيها المعطيات الثقافية والاجتماعية والعقدية المتنوّعة المشارب. وهي متنوّعة ومتعددة بحسب

¹ الصناعتين الكتابة والشعر، ص50.

الموقف الذي يجري فيه التخاطب، باعتبار أنّ تحقيق الأفعال الكلامية يقتضي التأثير في المتلقّي وفق سمات تخاطبية معينة تتجاوز الطابع الرمزي الشكلي للغة، لترتكن بقواعد تأدّبية أخرى لها فعالية أكثر في تحقيق القوة الإنجازية المقصودة.

وقد أدرّكنا أيضا طبيعة معالجة علمائنا للتخاطب في البيئة العربية، فهي مؤسسة على أخلقة القول وقف ضوابط خاصة متكاملة ومنسجمة مع القواعد اللغوية، وكل ذلك بما يحافظ على الاستمرار الناجح والفعال في التفاعل الكلامي من جهة، وما يحقق الأغراض المقصودة من جهة أخرى. وقد أكدت معالجتهم في هذا السياق أنّ أساس وجود الإنسان في علاقاته وتفاعلاته هو اللسان؛ فـ "الإنسان هو اللسان".

قائمة المصادر والمراجع:

- * القرآن الكريم برواية الإمام ورش عن الإمام نافع.
- ابن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، بيروت مؤسسة الرسالة (د.ت.).
- ابن عبد البرّ (ت463هـ)، أدب المجالسة وحمد اللسان، تحقيق ودراسة سمير حلي، طنطا دار الصحابة للتراث، ط1/1989.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، بيروت دار الكتاب الجديد المتحدة ط1/2004م.

- أحمد المتوكل، آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، الرباط منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1993.
- علي بن محمد الماوردي (ت450هـ)، الأمثال والحكم، تحقيق ودراسة د.فؤاد عبد المنعم أحمد، الرياض دار الوطن للنشر، ط1/1999.
- ستيفن ليفنسون، البراجماتية اللغوية، ترجمة د.سعيد حسن بحيري، القاهرة مكتبة زهراء الشرق، ط1/2015.
- ابن عبد البر النمري القرطبي (ت463)، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والمأجس، تحقيق محمد مرسى الخولي، بيروت دار المكتب العلمية، ط2 (د.ت).
- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة مكتبة الخانجي، ط7/1989.
- آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، بيروت المنظمة العربية للترجمة، ط1/2003م.
- ابن سينا، تسع رسائل في الحكمة والطبيعات، القاهرة دار العرب للبستاني، ط2.
- خليل بن أيبك الصفدي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية بيروت (د.ت).
- أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق أبو الفضل عبد المجيد قطامش، بيروت دار الجيل، ط2، (د.ت).

- سامية بن يامنة، سياق الحال في الفعل الكلامي دراسة تحليلية تطبيقية، الأردن دار كنوز المعرفة، ط1/2018.
- محمد كرد علي، رسائل البلغاء، طبع دار الكتب العربية، مصطفى الباي الحلبي وأخويه، سنة، 1913.
- أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2(د.ت).
- أبو الطيب بن يحيى الوشاء، الظرف والظرفاء، تحقيق د. فهمي سعد، بيروت عالم الكتب، ط1/1986.
- ابن عبد ربّه، العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، بيروت دار الكتب العلمية، 1997.
- ابن قتيبة الدنوري، عيون الأخبار، القاهرة دار الكتب المصرية، ط2/1996.
- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3/1301هـ.
- الأمير أسامة بن منقذ (ت584هـ)، لبّاب الآداب، تحقيق د. أحمد شاعر، القاهرة منشورات مكتبة السنة، ط1/1987.
- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المغرب المركز الثقافي العربي، ط1/1998.

- جيوفري ليتش، مبادئ التداولية، ترجمة د. عبد القادر قنيني، الدار البيضاء
أفريقيا الشرق، 2013.

- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مصر مكتبة الشروق الدولية،
ط4/2004.

- صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، القاهرة الدار المصرية
السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.

المراجع الأجنبية:

-Searle, Sens et expression études de théorie des actes
de langage, Paris les éditions de minuit, 1982